طرق انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا

أخذت الحضارة الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وسلكت هذه الحضارة عدة طرق أهمها ثلاثة هي: الأندلس أولاً، وصقلية ثانياً، وبلاد الشرق الأدنى وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثا: وسنتحدث عن هذه الطرق لبيان أهمية كل طريق في الاتصال الحضاري بين العالم الإسلامي من جهة والغرب الأوربي من جهة أخرى.

١ ـ الأندلس (أسبانيا):

كانت أسبانيا عندما فتحها المسلمون في أوائل القرن الثامن للميلاد لا تختلف عن بقية بلاد عرب أوربا في ذلك الوقت من حيث انتشار الجهل والتأخر والفوضى بسبب النزاع الاجتماعي والانحلال الداخلي والفتن الطائفية. ولعل أكبر مظاهر هذا الانحلال والانقسام أن أحد قرائها اشترك مع رئيس أساقفة أشبيلية في مساعدة المسلمين على فتح أسبانيا. ولكن المسلمين بعد أن فتحوها نقلوها إلى مرحلة استقرار وإنشاء، فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميتة وتعمير المدن الخربة وتنشيط التجارة الراكدة وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبح الأندلس في ظل خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوربية وأكثرها ازدحاماً بالسكان[١].

(١) جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٥٦ص ٨١ ـ ٨٢ .

وانصرف المسلمون نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون، وابتكروا وجددوا مما أتاح لأوربا مورداً عذباً استساغت شرابه، فظلت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد. ولم يدخر الأندلسيون وسعاً في الحصول على علوم الشرق الإسلامي؛ إمّا باستدعاء علماء المشرق إلى الأندلس مثل أبي علي القالي، وإما بسفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة مثل يحيى بن يحيى الليثي، وإما عن طريق جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي حتى أحضر الخليفة في الحكم الثاني عيون التآليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب(١).

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، عندما أصبحت قرطبة ـ عاصمة الخلفاء الأمويين ـ من أعظم مدن العالم المتحضر، وبها ما يزيد على مائتي ألف منزل يسكنها مليون نسمة، ويكفيها فخراً في ذلك العصر أن أهلها كانوا يستطيعون المشي في شوارعها ليلاً في ضوء المصابيح العامة، في حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون لا يوجد في طرقاتها مصباح واحد يضيء ليلاً. وهكذا استمر نور الحضارة الإسلامية ساطعاً في الأندلس وبخاصة في الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية، حتى امتد ليضيء غرب أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما.

---

(١) د./ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على أوربا ص ٢٢١ ـ ٢٢٥ .

وساعد على هذه النهضة العظيمة بالأندلس سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه أهل الذمة من مسيحيين ويهود. فأقبل المستعمرون الأسبان على استخدام اللغة العربية، بل فضلوها على اللاتينية، كما تتلمذ كثير من اليهود على الأساتذة العرب.

وهكذا نشأت مدرسة كبيرة من غير المسلمين استطاع أعضاؤها القيام بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية من ناحية، وأهالي غرب أوربا من ناحية أخرى. وشارك اليهود في الحياة الثقافية بالأندلس مشاركة فعالة، وذلك بما ترجموه من كتب عربية كثيرة. هذا مع ملاحظة أن نشاط يهود أسبانيا كان جزءاً لا يتجزأ من نشاط المسلمين الحضاري. ويتضح مدى إعجاب الأسبان بثقافة العرب وإقبالهم على حضارة المسلمين فيما ذكره الفارو: «إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لتعلم أسلوب عربي بليغ..»[1].

وعندما سقطت طليطلة في أيدي المسيحيين سنة ١٠٨٥م ازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوربا على اسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية، فنشطت حركة الترجمة عن العربية، وترجم إلى اللاتينية كثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية كثير من مؤلفات اليونانيين مثل كتب جاليتوس وبقراط وافلاطون وأرسطو وافليدس وغيرهم. وقد وجد من حكام أسبانيا المسيحيين الثقافة العربية الإسلامية مثل الفونس الخامس ملك قشتالة وليون الملقب بالحكيم (١٢٥٢م - ١٢٨٤م).

(١) د/ سعيد عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، ص ٥٢ - ٥٣.

وإذا ظن بعض المسيحيين المتعصبين - مثل رئيس الأساقفة اكزيمنيس الذي أحرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب بعد جلائهم عن أسبانيا - أنهم يستطيعون محو آثار الحضارة الإسلامية من الأندلس فإن هؤلاء فاتهم أن ما تركه العرب من طرق معبدة وقصور مرفوعة، ومشافي وفنادق وغيرها كل ذلك كان كفيلاً بتخليد اسم العرب، حتى قال لوبون إنه لا يوجد في أسبانيا المعاصرة من أعمال الري سوى ما أتمه العرب[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن العرب اختلطوا بأهل الأندلس وتزوجوا من نسائها ونشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم أينما ساروا. والعرب شعب متفتح فأقبلوا يعطون ويأخذون ولم يفرضوا دينهم ولكن الأوضاع الاجتماعية الظالمة في عهد القوط دفعت بأفواج كثيرة إلى الإسلام. وهكذا بدأت في الأندلس منذ اللحظة الأولى عملية امتزاج اجتماعي واسع النطاق بين مختلف العناصر التي أصبح الشعب الأندلسي يتألف منها وكان للتبادل الحضاري والثقافي العربي نفوذ هائل على أسبانيا المسيحية.

ولكن الدولة الإسلامية في الأندلس أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، وأخذت الممالك المسيحية تزداد قوتها وتشتد، فسقطت طليطلة في أيدي المسيحيين عام ١٠٨٥ م وانتهى الأمر بسقوط مملكة غرناطة الصغيرة في سنة ١٤٩٢ م.

(١) نفس المرجع.

٢ ـ صقلية:

فتح العرب الأغالبة حكام تونس جزيرة صقلية التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ م وبقيت صقلية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها النورمنديون في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م .

وقد انتقلت علوم المسلمين إلى غرب أوربا عبر جزيرة صقلية، ذلك أن المسلمين عندما ثبتوا أقدامهم في صقلية في القرن التاسع للميلاد اهتموا بالزراعة فحفروا الترع والقنوات وأنشأوا المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر. وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت، وأدخلوا فيها صناعة الحرير. أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها على أيام العرب ولم يبق الآن في صقلية سوى القليل النادر من مباني العرب، ولكنها تشهد جميعاً بالروعة والجمال الأخاذ. وقد وصف الإدريسي مدينة بالرمو (عاصمة صقلية) على عهد روجر الثاني ـ أي بعد زوال حكم العرب بقليل ـ إذ أشاد بقصورها ودورها ومتنزهاتها. وهكذا يبدوالفارق الكبير بين أحوال صقلية الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية احتلال المسلمين لها[١].

غير أن الحضارة الإسلامية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة، فقد شجعها ملوك النورمان الذين قاموا بحماية العرب والاعتناء بهم لادراكهم أن ذلك سيعود بالفائدة عليهم. وكتب روجر الأول (١٠٦١م ـ ١١٠١م)

(١) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وامتازت النقود التي سكها هذا الملك بأن وجهها جاء مكتوباً عليه بالعربية، والوجه الآخر مكتوباً عليه باللاتينية واليونانية، كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية. وقد استعان خلفاء روجر على سنته فاستعان روجر الثاني (١١٢٩م - ١١٥٤م) بعلماء من العرب، كما درس وليم الثاني (١١٦٦م - ١١٨٤م) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه من العرب في أهم شئونه. وقد ارتدى ملوك صقلية رداء من الحرير مطرزاً بكتابات عربية بالخط الكوفي، يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٣ م. كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراساً من العرب، ارتدوا زيا اختلف عن زي الحراس النورمان.

وليس هناك من شك في أن الشعر العربي كان يمارس في بلاط ملوك صقلية النورمان. وقد برزت المدرسة الصقلية في الشعر في عهد الإمبراطور فردريك الثاني في القرن الثاني عشر، لإحاطته نفسه بمظاهر شرقية عربية، حيث إنه تعلم اللغة العربية، وشجع ترجمة الكتب العربية كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب[1].

٣ ـ الشرق الأدنى والحروب الصليبية:

كان لبلاد الشام والشرق الأدنى أثر في نقل مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي في العصور الوسطى، وكان ذلك من خلال الحروب

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

الصليبية التي نشأت عنها صلات سياسية وحضارية وتجارية بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

فالصليبيون جاءوا إلى منطقة الشرق وبلاد الشام للحرب لا لطلب العلم، وامتازت حياتهم الجديدة بالخشونة وإقامة القلاع والحصون والإبقاء على معاقلهم التي أقاموها في الشام وسط محيط إسلامي واسع. ولم تخف وطأة الحرب إلا بالقضاء على آخر المعاقل الصليبية في الشام - وهي مدينة عكا ١٢٩١م.

وهكذا لم تتح للصليبيين في الشرق الأدنى حياة الاستقرار وهي الحياة الضرورية لمباشرة النشاط الفكري والحضاري، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمي بالعرب بالقدر الذي أتيح لإخوانهم الأوربيين في الأندلس وصقلية. حقيقة أن الصليبيين استطاعوا تأسيس عدة إمارات قوية بالشام، كما أسسوا مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه الوحدات الصليبية كانت في حقيقة أمرها معاقل أو ثكنات حربية متناثرة وسط محيط واسع من الخصوم، فخيم عليها جميعاً جو من الرعب والفزع لا تستقيم معه بأي حال حياة علمية مثمرة[١].

ويجب أن نعترف بأن الحروب الصليبية لم تخل من اتصالات حضارية وثقافية بين المسلمين والصليبيين. فمن الناحية اللغوية دخل كثير من المصطلحات والكلمات العربية في اللغات الأوربية. كذلك أثرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الأوربيين لا سيما فيما يتعلق ببناء

(١) د/ سعيد عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٧ - ٦٠.

القلاع والحصون. هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم، وإرسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل. ومن المحتمل أن يكون الشرق الإسلامي إبان الحروب الصليبية هو المصدر الذي أخذ عنه الغرب الأوربي نتيجة للاتصال بالمسلمين في الشام. فقد أدت الحروب الصليبية إلى قيام نشاط تجاري بين الشرق والغرب وأثر هذا النشاط في أحوال أوربا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد أثرت الحياة العربية في الحياة الأوربية نتيجة لنمو التبادل التجاري، فنلاحظ انتقال نباتات وحاصلات وأشجار جديدة من شرق البحر المتوسط إلى غربه مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم، وانتشار كثير من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية في الغرب، هذا فضلا عن انتقال بعض العادات والتقاليد والنظم الإسلامية إلى الفرنجة.

والواقع أنه جاء وقت على غرب أوربا في العصور الوسطى ضاق فيه الناس بتزمت الكنيسة التي حصرت تفكيرهم داخل دائرة ضيقة، فأخذوا يتطلعون إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأكثر تنوعاً. وفي الوقت الذي قيدت فيه الكنيسة تفكير الأهالي في غرب أوربا وألزمتهم بحصر نشاطهم الفكري داخل حدود معينة كان مفكرو المسلمين ـ من أمثال ابن رشد ـ يضربون مثلاً فريداً في حرية الفكر. وكان أن ولى الأوربيون وجوههم شطر حضارة الإسلام، وانصرفوا إلى دراسة علوم المسلمين، مما ترك أثاراً واضحة في الفكر الأوربي. ومن هؤلاء أديلارد الباتي الذي درس علمي

الفلك والهندسة وزار مصر والشام والأندلس، ومثله ليوناردو فيبوناتشي الذي طاف بمصر وبلاد الشام وتعلم الجبر من المسلمين[1].

على أن الاستفادة من خلاصة الفكر العربي لم تتم إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عكف فيها فريق من المستعربين على نقل كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية، وبذلك أمكن للغرب الأوربي الاستفادة على نطاق واسع من انتاج القريحة العربية الإسلامية.

٤ ـ حركة الترجمة:

شهدت أوربا نهضة فيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، وهذه النهضة ارتبطت في الجانبين العلمي والفلسفي بالتراثين اليوناني من جهة والعربي الإسلامي من جهة أخرى. ولم تستطع أوربا أن تستفيد من هذين التراثين إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية. ولكن التراث اليوناني لم يلق عناية في غرب أوربا في العصور المظلمة في حين وجد التقدير الكافي والعناية الفائقة في الشرق، حيث أظهر العرب اهتماماً كبيراً و رعاية فائقة للثقافات والعلوم المتنوعة التي وجدوها في غرب آسيا. وامتازت الحضارة الإسلامية بحركة النقل من الفارسية والسريانية واليونانية والهندية والصينية إلى العربية.

وكان بنو أمية على قسط كاف من الحكمة وبعد النظر جعلهم يتركون المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة في

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥٩ ـ ٦٠.

الأسكندرية وبيروت وحران ونصيبين وجنديسابور، فاحتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلوم، ومعظمها في ترجمته السريانية. وسرعان ما استهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية، ولم يلبث أن قام بترجمتها إلى العربية جماعة من المسلمين فضلاً عن اليهود والنساطرة المسيحيين(١).

وكانت طريقة السريان أن ينقلوا الكتاب اليوناني إلى لغتهم السريانية، ثم يترجموه بعد ذلك من السريانية إلى العربية. وهكذا أصبح السريان أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهللينية والإسلام.

واستمرت الحركة العلمية وحركة الترجمة إلى العربية في العصر العباسي، عندما ربط المسلمون بين تراث اليونان وعلوم الفرس والهنود والصينيين، مما جعل اللغة العربية أداة العلم والمعرفة التي تعبر عن أقصى ما بلغته الحضارة البشرية في العصور الوسطى من سمو ورفعة. وقد تمكن العرب من ترجمة كتب أرسطو وأفلاطون الفلسفية وجالينوس الطبية، علاوة على مجموعة من الكتب الفارسية والهندية، وهكذا تمكن طلاب المعرفة من العرب أن يهضموا ما أنتجه اليونان في سنوات طويلة.

وهكذا لم يعد أمام الغرب الأوربي سوى الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

وعلاوة على ذلك، وضع علماء المسلمين شروحاً لفلسفة أرسطو كما فعل ابن رشد، واهتم بها علماء الغرب(٢).

(١) فيليب حتى، تاريخ الإسلام، جـ٢، ص ٣٨٠، ٤٤٤.

(٢) نفس المرجع.

أما أهم مراكز الترجمة عن العربية إلى اللاتينية فكانت مركزين : الأندلس وصقلية. والواقع أن الأندلس كان المركز الرئيسي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، فاتجه إليه كثير من أعلام النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية في مختلف العلوم والآداب. ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا في القرن الثاني عشر أديلارد الإنجليزي وهرمان من ألمانيا وجيرارد من كريمونا بإيطاليا. هذا عدا أهل أسبانيا من المستعربين واليهود الذين اشتغلوا بنقل المعارف العربية وترجمتها مثل بطرس الفونس وحنا الأشبيلي وإبراهيم بن عزرا وغيرهم.

وقد نشطت حركة الترجمة عن العربية في برشلونة وليون وطليطلة والتي أسس رئيس أساقفتها مكتباً كبيراً للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وتمت ترجمة كثير من أمهات المراجع العربية إلى اللاتينية. وقام روبرت الشستري بترجمة القرآن لأول مرة إلى اللاتينية، كما ترجم كتاب الخوارزمي في الرياضيات، فضلاً عن بعض المؤلفات العربية الأخرى في الكيمياء والفلك. كما قام جيرارد الكريموتاوي بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في طليطلة في كل علم وفن، وترجم أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً؛ تناولت مختلف ألوان المعرفة، وبخاصة الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب[1].

ولاريب أن العرب بتسامحهم العظيم مع الأجانب وغير المسلمين أتاحوا

(١) جوستاف جرونيباوم ، حضارة الإسلام، ص ٤٣٢ .

لهذه العناصر فرصة طيبة للتتلمذ عليهم والإفادة منهم، حتى قال أحد الكتاب الأوربيين «إن الحضارة الإسلامية نمت بسبب تسامحها إزاء العناصر الأجنبية».

أما صقلية فقد أسهمت هي الأخرى بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن العربية. وساعد على قيام صقلية بهذا الدور موقعها المتوسط بين أوربا وأفريقيا، فضلا عن دخولها تحت حكم المسلمين منذ ٨٢٧م إلى ١٠٩١م ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وثقافتها العربية في عصر النورمان الذين خلفوا العرب في حكم الجزيرة. وقد ترجم في صقلية كثير من الكتب العربية، ففي سنة ١١٥٠م ترجم ايوجينوس البالرمي كتاب بطليموس، وفي سنة ١١٦٢م ترجمت عن العربية كتابات أخرى في الفلك والرياضيات. واشتهر من المترجمين في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي، وهو من أصل صقلي، وطلب العلم في سالرنو عاصمة صقلية وترجم العديد من كتب العرب إلى اللاتينية(١).

٥ ـ امتداد الدولة العثمانية فى شرق أوربا:

كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية تصل بقواتها إلى الأراضي الأوربية، وقامت الدولة بدورها في نشر الإسلام في أصقاع شتى من الأقاليم الأوربية، واحتفظ العثمانيون بروحهم الإسلامية، فكان ولاؤهم إلى الدين الإسلامي أولاً، ثم إلى السلطان ثانياً، ثم إلى الدولة ثالثاً. فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين مجاهدين في سبيل نشر الدين

(١) نفس المرجع، ص ٤٣٩.

الإسلامي في القارة الأوربية. وازدادت هذه الروح الحربية تأججا في نفوس العثمانيين بعدما واجهوا تكتلات صليبية واسعة النطاق ضمت العديد من دول أوربا، وكانت البابوية في روما تدعم وتؤيد هذه التكتلات بل تنادي بالإنضمام إليها. وكأن الحركة الصليبية التي شهدها الشرق الإسلامي في الماضي قد انتقلت ميادينها إلى أوربا. فالصليبيون في أوربا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت في وجه الصليبية الأوروبية، فكان النصر حليف العثمانيين.

وحولت الدولة العثمانية دار الحرب إلى دار الإسلام، وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام وحضارة الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد نشر الإسلام في أوربا. وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية في كل من الأناضول وأوربا بنشر الإسلام، وغدت العواصم التي أتخذتها الدولة العثمانية تباعاً وهي قونية، بردسة ، أدرنة، واستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية والحضارة الإسلامية.

وقد تركت الدولة العثمانية بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوربا. ومازالت حتى الآن توجد جماعات إسلامية تعيش في أوربا ولم تغير دينها بأي حال من الأحوال رغم الضغوط التي بذلت من الدول الأوربية لتحويلها إلى المسيحية[١].

ومهما يكن من أمر، فإن العثمانيين بذلوا كل ما يستطيعون لتحويل النصارى إلى الإسلام، وكانوا يقيمون الأفراح إذا ما دخل فرد من المسيحيين في الإسلام.

---

(١) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٤ .

وقد عامل العثمانيون أهل أوربا المسيحيين معاملة تقوم على التسامح النابعة من روح الإسلام، الأمر الذي جعل الكثيرين من الأغريق يقبلون بتغيير ديانتهم طلباً للتخلص من حكم الفرنجة البيزنطيين الظالم، فيدخلون الإسلام لما فيه من عدل ومساواة وحب لخير البشرية وإصلاح للمفاسد، وكان النظام الإداري والقانوني رائعاً، كما انتشر الأمن والنظام في البلاد[1].

(١) د/ عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ، ص ١٤ ـ ١٥ .